

موقف المماليك من التطورات السياسية في العراق

٨٧٤-٩٢٣ هـ / ١٤٧٠-١٥١٧ م

علاء محمود خليل قداوي*

تمهيد:

يلاحظ المتتبع للدراسات التاريخية عن السياسة الخارجية للدولة المملوكية الثانية (٧٨٤-٩٢٣ هـ / ١٣٨٢-١٥١٧ م) أنها عُنيت في الغالب بدراسة العلاقات القائمة بينها وبين العثمانيين ، في حين أغفلت بعض الشئ دراسة موقف المماليك من التطورات السياسية في العراق في الربع الأخير من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ومطلع القرن السادس عشر مع العلم أن تلك الفترة شهدت أحداثاً سياسية مهمة تمثلت بانهيار دولة القرّة قوينلو بأحتلال الآق قوينلو بزعامة حسن الطويل العراق وبلاد فارس وأذربيجان ، سنة ٨٧٢ هـ/١٤٦٧ م ، كما شهدت تلك الفترة قيام الدولة الصفوية واكتساحها لبلاد الآق قوينلو ومنها العراق ، خلال المدة (٩٠٨-٩١٤ هـ/١٠٥٢-١٥٠٨ م) والصراع الصفوي العثماني وهزيمة الصفويين في معركة جالديران (٩٢٠ هـ/١٥١٤ م) وامتداد النفوذ العثماني في أعقاب هذه المعركة الى جهات شمالي العراق ، ثم دخول بلاد الشام في الطوق العثماني في أعقاب معركة مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م .

ومن هنا تبرز أهمية دراسة موقف المماليك من هذه التطورات لما لموقفهم من أثر جوهري في طبيعة الأحداث السياسية التي شهدها المنطقة ، وما تمخضت عنه من نتائج سلبية على صعيد مصالحهم الخاصة في نهاية المطاف ، وقد توزعت الدراسة على عدة محاور ، وكما يأتي :

١- موقف المماليك من قيام امارّة الآق قوينلو في ديار بكر العليا .

* قسم التاريخ / كلية الآداب / جامعة الموصل

٢- المماليك وحسن الطويل .

٣- اضطراب الأحوال في العراق والهجوم المملوكي .

٤- موقف المماليك من الصراع الآق قوينلو - الصفوي .

٥- العلاقات المملوكية الصفوية وانهيار الدولة المملوكية .

أولاً : موقف المماليك من قيام الآق قوينلو في ديار بكر العليا :

الآق قوينلو " ذو الخراف البيض " طائفة من التركمان وصفت بالبايندية لانتسابها الى بايندر أحد أحفاد أوغوز البطل الاسطوري للاتراك ، دفعها الغزو المغولي الى الهجرة من موطنها الأصلي تركستان نحو أذربيجان لتستقر في نهاية القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي في ديار بكر العليا جنباً الى جنب مع قبائل تركمانية أخرى (١) .

وكانت بداية نشاطهم السياسي على عهد زعيمهم علاء الدين طور علي بيك الذي خلفه في الحكم ابنه فخر الدين قونلوغ بيك ليعقبه أحمد بيك ثم حفيده قره عثمان والأخير الذي تولى الزعامة سنة (٧٩١هـ / ١٣٨٩م) يعد المؤسس الحقيقي للامارة وقد نعتته المصادر التاريخية بقره يلك وأقره يلك كناية عن شراسته وبطشه القاسي بأعدائه (٢) .

لقد خدمت الظروف التي عاشها العراق وبلاد الشام في نهاية القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي طموحات قره عثمان ، اذ وضع نفسه لخدمة تيمورلنك في أثناء غزوه للعراق والشام ، وكان يحمل راية تيمور عند غزوه بلاد الشام وقد كافأه تيمور لموقفه هذا وأقره أميراً على ماردين وأمد ومنحه حكم الموصل وسنجار وأربل ، الا أنه عجز عن الاحتفاظ بهذه المناطق ، بعد انهيار الحكم التيموري في العراق سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م على يد القره قوينلو والجلاتريين حلفاء المماليك (٣) .

أظهر قره عثمان في السنوات اللاحقة من حكمه طمعاً في الأراضي المملوكية الواقعة في شمال سوريا وأعلى الفرات وشرق الأناضول فصارت هدفاً لغاراته ، ففي سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م طرق أبواب مدينة عينتاب فعاث وأحرق أسواقها ولم يتوقف عن نهبها الا بعد أن أخذ من سكانها " مائة الف درهم وأربعين فرساً " فرحل عنها الى البيرة التي قرر أهلها مقاومتها فصمدت بوجهه حتى اجبرته على العودة الى بلاده (٤) ، ومما يثير الانتباه أن السلطات المملوكية لم تحرك ساكناً بالرغم من عواقب غاراته على مدنهم وما سببته من اضطراب تجارتهم (٥) .

وعاود قره عثمان بعد عشر سنوات أي سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م الهجوم على الأراضي المملوكية ، وكانت وجهته هذه المرة مدينة الرها التي احتلها ونهب قلعتها ، وخربت وأسند حكمها لولده هاييل (٦) ، وازاء ذلك كان رد فعل المماليك سريعاً وعنيفاً خاصة بعد أن شعروا بأن الخطر الآق قوينلو بات يهدد مدناً أخرى ، فتمكنوا من طرد الآق قوينلو من الرها وخرتبرت وأسرو حاكمها (٧) .

غير أن قره عثمان سرعان ما عاود حصار الرها سنة ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م بعد أن رفضت السلطات المملوكية اطلاق سراح ولده هاييل ، كما عمد في الوقت نفسه الى اثاره السلطان المملوكي برسباي (٨٢٥- ٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٧م) ، واظهار عدم احترامه له ، لقد أرسل له هدية احتوت على تسعة أكاديش ودرهم قليلة مضروبة باسمه امعاناً منه - كما يبدو - في اشعار برسباي بالاحتقار ، الأمر الذي دفع السلطان المملوكي الى عدم استقبال الوفد (٨) كما أصدر أوامره بشن حملة عسكرية لنجدة القوة المملوكية المحاصرة في الرها (٩) ، وطلب من حلفائه القره قوينلو حكام العراق وإيران الضغط على قره عثمان والهجوم على اراضي امارته ، فاستجاب اسكندر بن

قره يوسف حاكم القره قوينلو لطلبه فشن هجوماً على أراضي الآق قوينلو مما اضطر قره عثمان الى رفع الحصار عنها ليواجه خصمه اللدود اسكندر الذي تمكن من قتله في معركة نشبت بينهما سنة ٨٣٩هـ/٤٣٥م ويذكر ان اسكندر حز رأس قره عثمان وأرسله الى القاهرة التي احتفلت لمدة ثلاثة ايام ابتهاجاً بهذا الحدث السعيد (١٠).

لم يمه غياب قره عثمان السياسي المخاطر التي كانت يتعرض لها المماليك من القوى التركمانية والتمورية ، اذ كان اعلان السلطان العثماني مراد الثاني (٨٢٤-٨٤٨هـ/١٤٢١-١٤٤٤م) وزعماء امارة بني قرمان وذلغادر التركمانيتين ، فضلاً عن الآق قوينلو بتبعيتهم لشاهرخ التيموري سنة ٨٣٩هـ/٤٣٥م (١١) الطامع ببلاد الشام ومصر بمثابة تحالف ضد المماليك . وبهدف مواجهة هذا التحالف وثق برسباي تحالفهم مع اسكندر القره قوينلوي الداخل في صراع مع التيموريين والآق قوينلو ، فأرسل قوة مملوكية كبيرة سنة ٨٤١هـ/٤٣٧م الى شرق الأناضول لتقوية اسكندر على خصمه ، وما أن وصلت تلك القوى ارزنجان حتى وصلها نبأ وفاة السلطان برسباي ، فأضطرت للرجوع الى الشام (١٢) .

واستمر التنسيق بين المماليك والقره قوينلو في اتخاذ المواقف الايجابية المتبادلة تجاه الآق قوينلو ، اذ بارك المماليك حملة جهانشاه القره قوينلو على ديار بكر والتي كان هدفها تأديب جهانكير الآق قوينلوي بسبب خروجه عن طاعة السلطان المملوكي (١٣) .

ومع بداية سنة ٨٥٧هـ/٤٥٣م حدثت متغيرات سياسية أثرت سلباً على علاقة المماليك مع القره قوينلو لمصلحة الآق قوينلو وتمثلت بتنامي قوة العثمانيين وذلك بعد أن تمكنوا من اسقاط الدولة البيزنطية وفتحهم القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/٤٥٣م ونوجههم شرقاً لاستكمال السيادة على آسيا الصغرى ،

ومما أثار حفيظة المماليك الذين كان لهم نفوذ في هذه المنطقة والآق قوينلو الساعين الى التوسع غربا ، فحدث تقارب بينهما عندما اعلن حسن الطويل الزعيم الآق قوينلوي الجديد تبعيته للسلطان المملوكي الأشرف اينال (١٥) بهدف التصدي للعثمانيين وابعاد أوجه التقارب بين المماليك والقره قوينلو ، اذ أن حسن الطويل كان يلوح في كل مسعى عسكري يقوم به بأنه ينوب عن المماليك في ذلك ، وعلى هذا الاساس فقد عد نفسه نائبا عن المماليك بل ذهب الى أبعد من ذلك عندما قرر اعلان الخطبة له من على منابر ديار بكر وضرب السكة باسمه ، وقد قوبلت السفارة بالحفاوة والتكريم دون صدور رد فعل رسمي على العرش الآق قوينلوي (١٦) .

وفي السنة التي تلتها بعث حسن الطويل بسفارة أخرى ترأستها والدته سارة خاتون حظيت كسابقتها بالتكريم (١٧) ، والا أنها لم تحقق أهدافها في كسب المماليك الى جانب ولدها حسن الطويل في صراعه ضد القره قوينلو .

وعلى ما يبدو فإن وقوف المماليك على الحياد في الصراع الناشب بين الآق قوينلو والقره قوينلو كان بمثابة سوء تقدير لهذا الصراع الذي أفسح المجال للآق قوينلة لتوجيه ضربة حاسمة للقره قوينلة في معركة موش سنة ٨٧٢هـ/٤٦٧م انهدت دولتهم بمقتل جيهانشاه (١٨) ، وغيرت سياستهم تجاه المماليك بعد هذا الانتصار من التابع الى الطامح في مناطق نفوذهم ، ولاسيما في الفرات الاعلى وبلاد الشام ، ولعل ما يعزز هذا الرأي هو تبدل العلاقة السياسية بينهما بعد تلك الأحداث كما سنرى ذلك لاحقا .

ثانيا المماليك وحسن الطويل :

تشكل سنة ٨٧٢هـ/٤٦٧م نقطة تحول في العلاقات المملوكية الآق قوينلوية وذلك بسبب ظهور عاملين الأول توسع اماره الآق قوينلو لتشغل اضافة الى ديار بكر بلاد فارس وأذربيجان ثم العراق بعد اكتساح حسن الطويل هذه

البلاد التي كانت تابعة للقره قوينلو ، والثاني تمكن الطويل من تصفية الدولة التيمورية بعد قضاءه على ابي سعيد التيموري حفيد تيمورلنك وحليف القره قوينلو وذلك سنة ٨٧٣هـ/٤٦٨م (١٩) .

أن تنامي قوة الآق قوينلو في حدود لا تقارن بما كان عليه وضعها قبل تمكنها من ازالة قوتين سياسيتين كانتا قد لعبتا دورا بارزا خلال الحقبة التي سبقت زوالهما وهما التيمورية والقره قوينلو ، وفشل حسن الطويل في ايجاد منفذ له نحو سواحل البحر المتوسط الشمالية بعد أن تصدى له العثمانيون خلال السنوات السابقة (٢٠) ، فهذا مما أجبره على توجيه تحركاته نحو بلاد الشام خاصة بعد هيمنته على العراق وغياب ما كان يشكله المماليك من عمق استراتيجي له قبل زوال اعدائه القره قوينلو والتيموريين ، لذا فقد كانت متوقعة أن تضطرب العلاقات الودية بين المماليك وحسن الطويل ، وهذا ما أشار اليه المؤرخ المصري ابن تغري بردي حين قال أن "كل أحد يحقق (يتوقع) وقوع العداوة بين السلطان وحسن بيك" (٢١) ، وقد فسر ابن أياس المصري سبب ذلك بأن حسن الطويل "قد تزايدت عظمته جدا فخشي السلطان منه في الباطن وأخذ حذره" (٢٢) ، وفسر ما يظهره من ولاء للمماليك بأنه عين الخداع "(٢٣) ، كل ذلك يؤكد أن الطويل أخذ يتعامل مع المماليك كطامع في ممتلكاتهم .

وهذا ما أكدته الاحداث اذ ما أن علم حسن الطويل بالخسائر التي مني بها المماليك امام شاه سوار (١٤) حاكم دى لغادر التركمانية (٢٥) خلال الفترة (٨٧٢-٨٧٥هـ/١٤٦٧-١٤٧٠م) حتى بادر من جهته الى شن هجوم على البلاد الحلبية في ربيع الآخر ، ثم كرره في رجب من سنة ٨٧٦-١٤٧٠م (٢٦) وكذلك على مدينة الرها في سنة ٨٧٧هـ/٧٢٢م (٢٧) واستولى على قلعتي كركر وكختا شمالي الشام (٢٨) ، فضلا عن ايعازه لاميري الحج العراقي رستم بك والقاضي احمد بن وجين بأن يجعلوا الخطبة باسمه في موسم حج

سنة ٨٧٧هـ/٤٧٢م ، وقد نجح أمير الحج المذكوران في جعل الخطبة بأسم
"الملك العادل حسن الطويل " غير أن أمير مكة محمد بن بركات قبض على
رستم وصاحبه وأرسلهما الى القاهرة ، فأمر السلطان قاينباي بإيداعهما السجن
(٢٩) لأن ما قاما به يعد انتهاكا لمركز المماليك الديني وسيلدتهم على الحجاز .
لم يقف المماليك مكتوفي الأيدي تجاه تحركات حسن الطويل العدوانية ،
فقد جرد السلطان قاينباي حملى عسكرية في جمادى الآخرة سنة
٨٧٧هـ/٤٧٢م للتصدي لتحركات الطويل لبلاد الشام الشرقية ، ورغم أن
تصادما مباشرا لم يحصل بين الطرفين باستثناء لقاء نائب حلب القبض على
أربعين جنديا من الآق قوينلو كانوا يستطلعون تحركات المماليك وتم اعدامهم
(٣١) ، الا أن المماليك كانوا يفضلون أن يجنح حسن الطويل للسلم لأن
أوضاعهم الاقتصادية والسياسية لا تسمح لهم بالانجراف في أتون حرب مكلفة
مع دولة فتية مثل دولة الآق قوينلو ، ولهذا وكبادرة تعبير عن حسن نيتهم أطلق
المماليك سراح أميري الحج العراقي بعد عدة أشهر من اعتقالهما (٣٢) ،
وبالمقابل وجد حسن الطويل في هذه المبادرة المملوكية فرصة لتحسين علاقته
مع المماليك ، لاسيما أنه هو الآخر كان بحاجة لها بعد هزيمته القاسية على يد
العثمانيين في معركة تراجان سنة ٨٧٨هـ/٤٧٣م وتخوفه من التقارب
العثماني المملوكي من أن يكون موجها ضده (٣٤) ، وكذلك من أن يستغل
المماليك التمرد الذي حدث ضده والذي قاده ولداه أوغرلو محمد ومقصود بيك
حاكم بغداد سنة ٨٧٩هـ/٤٧٤م ولجؤا أوغروا محمد الى بلاد الشام طالبا
للمساعدة ، ولهذا أرسل حسن الطويل في محرم سنة ٨٧٩هـ/٤٧٤م قاصدا
الى القاهرة يحمل اعتذاره عما بدر منه من تحرشات بأراضي الدولة المملوكية
فقبل السلطان اعتذاره ، وتأكيدا بحسن النية رفض السلطان المملوكي تقديم
المساعدة لاوغلو محمد وشقيقه مقصود بيك حاكم بغداد ، فأظطر الاثنان الى

الهرب الى بلاد ايران (٣٧) ،لنتتهي حركتهما التي كان بإمكان المماليك استغلالها لمصلحتهم .

ثالثا اضطراب الأحوال في العراق والهجوم المملوكي :

توفي حسن الطويل سنة ٨٨٢هـ/٤٧٧م (٣٨) ، فتولى الحكم من بعده ولده خليل ميرزا حاكم شيراز سابقا ، ويبدو أن تولي خليل العرش أثار ردود فعل سريعة بين أبناء حسن الطويل وأقاربهم بسبب ضعف الأمير خليل وفساد ادارته وسوء سيرته ، وكان السلطان خليل قد ابتدأ عهده بقتل أخيه مقصود بيك حاكم بغداد الذي كان قد هرب الى بلاد ايران ، فكما فتك بعدد آخر من منائيه ومعارضيه سلطته (٣٩) الأمر الذي دفع اقرباؤه من المعارضين الى مبايعة أخيه يعقوب على السلطة ، فانقسمت العائلة الحاكمة على نفسها لنتتهي بصراع الأخوين في معركة دارت بينهما على نهر خوى عرفت بمعركة مرند انتهت بسقوط خليل قتيلا في ساحة المعركة ، وذلك في ١٤ ربيع الثاني ٨٨٣هـ/٤٧٨م (٤٠) .

ومما لاشك فيه أن هذا الصراع قد ترك ظلاله على أوضاع العراق الذي كان يعد من أهم ولايات الآق قوينلو ، ويمكن ملاحظة ذلك من كثرة التغيرات التي جرت على حكومة بغداد ، إذ تشير بعض المصادر الى استبدال خمسة حكام خلال فترة الصراع بين السلطان خليل وأخيه يعقوب ، أي بين سنة ٨٨٢-٨٨٣هـ/٤٧٧-٤٧٨م (٤١) ، وقد أفسحت هذه التغيرات والاضطرابات السياسية لامارة الآق قوينلو المجال للمشعشين - الذين كانت امارتهم العربية قد اتسعت كثيرا في جنوب العراق وجنوب غرب بلاد ايران - فشنوا غارات مدمرة على مناطق نفوذ الآق قوينلو في العراق شملت الحلة وأطراف بغداد وحدث ذلك عندما قاد المولى محسن المشعشي في ١٩ جمادى الآخرة سنة ٨٨٣هـ/٤٧٨م هجوما على الحلة وأطراف بغداد ، كما اجتآح

ديالى والخالص منزلا في أهلها القتل والنهب مدة ثمانية أيام عاد بعدها الى جنوب العراق (٤٢) .

وفي غضون ذلك كان المماليك يراقبون عن كثب التطورات الحاصلة في العراق ، فوجدوا أن التدهور الناجم عن كثرة التغييرات الحاصلة على حكومة بغداد ، ونجاح غارات المشعشين ، واختلاف عسكر الآقوينلو على السلطان يعقوب تعد فرصة مؤاتية على ما بدا لهم لتحرير العراق ، وهذا ما أكدته تقارير عيونهم ومنها ما قاله أحد جواسيسهم المنتشرين في العراق في تقرير رفعه الى السلطات المملوكية وجاء فيه أن مملكة الآق قوينلو " سلطنة وان العسكر مختلف على - السلطان - يعقوب ومتى حاربونهم لا يقدرؤا على محاربتكم ويسلموكم مملكة العراق قاطبة " (٤٣) .

وهكذا فقد أصدر السلطان المملوكي قاينباي أوامره الى كبير قواده الامير يشبك الدويدار لقيادة الحملة التي أعدها والبالغة عشرة آلاف مقاتل وخصص لنفقاتها أكثر من مائة الف دينار ، فكانت مهمتها التوجه نحو مدينة الرها سنة ٨٥٥هـ / ٤٨٠م كهدف أولي تتطرق بعده الى تحرير العراق (٤٤) .

لقد زحف الأمير يشبك نحو الرها وفرض عليها حصارا قاسيا ورفض اية مفاوضات حول فك الحصار وأصر على استسلام المدينة ، والافانه سيأخذها قسرا وازاء ذلك عمد حاكم المدينة الآق قوينلوية الأمير بابندر الى اتباع خطة عسكرية تقضي بالالتحام مع الجيش المملوكي خارج المدينة ورضه من ذلك ارباك تلك القوات التي لايتوقعون بروزها كقوة مهاجمة ، وقد حققت تلك الخطة هدفها في معركة فقد فيها المماليك معظم جندهم كما وقع من خيرة قادتهم في الأسر وفي مقدمتهم الامير يشبك نفسه ونواب الشام و حلب و حماة (٤٥) ، ويقول المؤرخ المصري المعاصر للحدث ابن اياس أن بايندر أمر بقتل الامير يشبك في اليوم الثالث من الاسر " بعث اليه بعبد اسود من عبيد

التركمان فقطع رأسه تحت جناح الليل " وأرسل رأسه الى سيده السلطان يعقوب بن حسن الطويل مع بقية الاسرى (٤٦) .

ولقد ألحقت معركة الرها ضربة قاصمة للمؤسسة العسكرية المملوكية وهي على حد وصف ابن اياس لها " كانت مصيبة عظيمة مهولة قل أن يقع مثلها لعسكر مصر ...) (٤٧) ، كما انها خيبت آمال المماليك في مد نفوذهم باتجاه العراق وأن ما يقال من أن السلطان المملوكي بعد سماعه بالهزيمة أمر بالتبنيؤ لقيادة حملة عسكرية بنفسه ضد الآق قوينلو وطردهم من العراق (٤٨) لم يكن الا ذرا للرماد في العيون واخفاء لعظمة المصيبة التي حلت بهم ، ولعل ما يعزز هذا الرأي استقبال السلطان المملوكي للوفد الذي أرسله السلطان يعقوب ليخبره بأنه قرر اطلاق سراح الاسرى ولما "سمع السلطان بهذا الخبر سر به جدا " وأرسل مع الوفد الهدايا الثمينة للسلطان يعقوب (٤٩) وبذلك خف التوتر بين الدولتين .

رابعاً موقف المماليك من الصراع الآق قوينلوي - الصفوي :

لقد تحسنت العلاقات بين المماليك والآق قوينلو بعد سفارة السلطان يعقوب سنة ٨٨٥هـ / ٤٨٠م ، وأشار بعض المصادر الى أن السلطان يعقوب أرسل ثلاث سفارات الى مصر خلال سنوات ٨٨٩هـ / ٤٨٤م و ٨٩٢هـ / ٤٨٦م و ٨٩٦ / ٤٩٠م وجميعها تؤكد ودية العلاقة مع مصر (٥٠) ، تلك العلاقة التي استمرت بعد وفاة السلطان يعقوب سنة ٨٩٦هـ / ٤٩٠م ، وحتى سقوط دولة الآق قوينلو على يد الصفويين سنة ٩١٤هـ / ٥٠٨م فالمماليك لم يقوموا بأي تحرك عسكري أو سياسي لاستغلال اضطراب أوضاع الآق قوينلو بعد الصراع الذي نشب بين أبناء السلطان يعقوب باي سنقر ومسيح ميرزا (٥١) ، ويعزى ذلك على ما يبدو الى تخوف المماليك من تزايد الخطر العثماني وتهديدهم المباشر لهم .

وكانت نهاية المطاف في العلاقة بين الدولتين استجداد حاكم بغداد مراد ابن يعقوب بالمماليك ، فقد أرسل مبعوثا عنه الى القاهرة في ٩ رمضان سنة ٩١٤هـ - ١٥٠٨م يطلب العون منهم ضد الشاه اسماعيل الصفوي وعلى الرغم من أن السلطان المملوكي قانصوه الغوري اكرم المبعوث وأحسن اليه ، الا أنه لم يستجب لطلبه بسبب ظروف مصر المملوكية التي كانت يومئذ سيئة للغاية ، فالسلطان قانصوه كان في ورطة كبرى منذ أن علم بوصول الأسطول البرتغالي الى المياه الجنوبية وقطعه الطرق على التجارة الشرقية التي كانت تمنح حكومة القاهرة دخلا سنويا كبيرا وهو في الوقت الذي كان معنيا اكثر بأمر البرتغاليين والعثمانيين (٥٢) ، لم يقدر حقيقة الخطر الصفوي على العراق حق قدره .

وأمام هذا الاخفاق في الحصول على مساعدة المماليك فضل مراد يعقوب الالتجاء الى بلاط السلطان العثماني ليقم هناك (٥٣) تاركا أمر بغداد وتقرير مصيرها لنائبه الامير باريك الذي لم يظهر رغبة جادة في مقاومة الحملة الصفوية المتجهة نحو بغداد والتي كانت بقيادة حسين بيك لاله لذلك هرب نحو بلاد الشام تاركا بغداد تواجه مصيرا قاسيا على يد الصفويين الذين احتلوها سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م (٥٤) ، وبهذا الاحتلال طويت صفحة العلاقات الآق قوينلوية المملوكية .

خامسا العلاقات المملوكية الصفوية وانهيار الدولة المملوكية :

لقد اعتمدت الدولة الصفوية منذ بداية نشأتها على يد اسماعيل الأول الصفوي (٩٠٧-٩٣٠هـ / ١٥٠١-١٥٢٤م) مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي على سياسة توسعية كان لها أثر كبير في احداث تطورات سياسية في منطقة المشرق العربي والاسلامي ، حيث أخضع الصفويين مناطق نفوذ دولة الآق قوينلو في بلاد ايران والعراق ، كما أخضعوا امارة دلاغدر - الواقعة على الحدود المشتركة بين كل من الدولة المملوكية

والعثمانية والصفوية (٥٦) وقد أخافت هذه السياسة دولة المماليك في مصر وبلاد الشام التي أخذت تتحسب لأطماعهم لاسيما بعد احتلالهم العراق واكتشافهم في جمادى الأولى سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م لمحاولة الشاه اسماعيل التحالف مع البنادقة لاسقاط الدولة المملوكية بهدف اقتسامها بموجب خطة يقوم الصفويين فيها بمهاجمة هذه الدولة من جهة العراق ، على أن يقوم البنادقة لمهاجمتها من جهة البحر (٥٧) .

أن وصول طلائع الجيوش الصفوية الى حدود بلاد الشام سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م ، وانتشار الاشاعات بأنها في طريقها للدخول الى البلاد (٥٨) ، وسوء استقبال الشاه اسماعيل لمبعوث السلطان المملوكي وجواب الشاه للسلطان الذي حمله المبعوث الصفوي في العام نفسه (٥٩) ، كلها أسباب سوغت هذا الخوف ودعت السلطان المملوكي قانصوه الغوري في الوقوف على الحياد في المواجهة العثمانية الصفوية التي انتصر فيها العثمانيون بقيادة السلطان سليم الأول على الشاه اسماعيل الصفوي في معركة جالديران سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م (٦٠) .

ومع أن شوكة الصفويين قد كسرت في جالديران ، ولكن هذه النتيجة أخافت المماليك من أن يختل ميزان القوى في المنطقة لصالح العثمانيين ، ولهذا السبب حسن السلطان المملوكي قانصوه الغوري علاقته مع الشاه اسماعيل الصفوي ، وهذا ما أشار اليه النهروالي قائلاً "كان بينه وبين الشاه محبة ومودة ومراسلات (٦١) .

وقد أرسل قانصوه الغوري مبعوثاً الى الشاه اسماعيل الصفوي بصورة سرية سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م يحثه فيها على التعاون ضد العثمانيين (٦٢) خاصة بعد أن استفحل الخطر العثماني على الحدود الشمالية الشرقية للدولة المملوكية في اعقاب معركة قره غين دده الواقعة في جنوب ماردين سنة

٩٢٢هـ/١٥١٦م التي كان من نتائجها انتزاع العثمانيين أقليم بلاد الجزيرة
الفراتية وشمال العراق بما فيه مدينة الموصل التي هي قاعدة هذا الاقليم من
الصفويين (٦٣) .

وتنفيذا لهذا التعاون تحرك الجيش المملوكي الى بلاد الشام سنة
٩٢٢هـ/١٥١٦م على أثر ما أشيع من تجهيز السلطان العثماني سليم الاول
حملة جديدة ضد الدولة الصفوية في هذا العام (٦٤) ، وكان هدف المماليك من
هذا التحرك ايضا هو التحسب من أن يستهدف العثمانيين بلاد الشام بدلا من
الصفويين .

وعلى ما يبدو أن هذه الاتصالات والتحركات المملوكية الصفوية قد
أثارت نخاوف الدولة العثمانية ، وكانت أحد الأسباب المؤدية الى معركة مرج
دابق قرب حلب والتي نشبت في يوم الأحد ١٥ رجب ٩٢٢هـ/٢٤ آب ١٥١٦م
بين السلطان سليم الأول وقائصوه الغوري حيث خر الغوري صريعا في ساحة
المنعركة وكان ذلك مقدمة لاننيار الدولة المملوكية التي لم يقدم لها الصفويين أي
اسناد فيها، اذ اكتسح السلطان سليم بلاد الشام (٦٦) ، في حين عادت فلول
المماليك الى عاصمتها القاهرة ، وقد نصبوا عليهم سلطانا جديدا هو طومان
باي (٦٧) الذي سعى لتكوين جيش مملوكي جديد يواجه به الزحف العثماني
السريع على القاهرة (٦٨) فقد جمع جيشه عند منطقة الريدانية خارج القاهرة
(٦٩) للتصدي للعثمانيين ، وفي المواجهة التي وقعت يوم خامس عشر رجب
سنة ٩٢٢هـ/٢٢ كانون الثاني ١٥١٧م سحق المماليك خلال نهار واحد ،
وهرب طومان باي وهلك الآف من جنده ودخل الجيش العثماني القاهرة بعد
ثلاثة أيام من هذه المعركة (٧٠) ، أما طومان باي فقد القي القبض عليه بعد
نضال ضد العثمانيين وأعدم في ١١ ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ/٢٣ نيسان
١٥١٣م، واعدامه كان نهاية للدولة المملوكية .

المصادر :

(١) الغياثي ، عبد الله بن فتح الله البغدادي : التاريخ الغياثي ، تحقيق : طارق نافع الحمداني ، مطبعة أسعد ، بغداد ١٩٧٥ ، ص ٣٧٢ . القرمانلي ، أبو العباس احمد بن يوسف الدمشقي : أخبار الدول وآثار الدول في التاريخ ، عالم الكتب ، بيروت ، ص ٣٣٦ . لين بول ، ستانلي : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الاسرات الحاكمة ، ترجمة : احمد السعيد ، دار المعارف بمصر ١٩٧٢ ، ص ٥٣٨ .

(٢) علي ، شاكر علي : الموصل في عهد سيطرة دولتي الخروف الأسود والخروف الأبيض ، موسوعة الموصل الحضارية ، جامعة الموصل ١٩٩٢ م ٢ ص ٢١٨ .

Kafes Oglu , Ibrahim : Kara Koyunlu Devet in ((Turk Dunyesiel Kilabi .T.K.A.E , yayinlarl , 45)) P, 884.
Roemer ,H.R : The Turkmen Dynadties in The eam bridge History of Iran , Cambridge , 1986 "rd , 6 , PP, 152 - 153 .

(٣) مجهول ، مؤرخ شامي : حوليات دمشق ، تحقيق : حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ . الغياثي : التاريخ الغياثي ، ص ٣٧٢ .
Encyclopaedia of islam " New Edition " .S.V.AK Koyunlu , Vol , IP , 3II .

(٤) أبين حجر العسقلاني ، احمد بن علي : أنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق : حسن حبشي ، القاهرة ج ٣ ص ١٧٠ .

(٥) كانت العلاقات المملوكية البنديّة ودية بحكم المصالح التجارية ، اذ يشير نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب " أواخر العصور الوسطى " القاهرة ، ١٩٧٣ م ، ص ٢٨-٢٩ .
أن البنادقة كانوا يدفعون الجزية للمماليك .

(٦) أبْن حجر : أنباء الغمر ، ج ٣ ص ٤٢١-٤٢٢ . مجهول : حوليات دمشقية ، ص ١٤٧ .

(٧) المقرئزي ، تنقي الدين احمد بن علي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، قام بنشره : محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤١ ، ج ٤ ق ٢ ص ١٨١ . أبْن تغرى بردى ، جمال الدين أبِي المحاسن يوسف : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب المصرية ، ج ٤ ١ ص ٣٣٠-٣٣٢ .

(٨) أبْن حجر : أنباء الغمر ، ج ٣ ص ٥٣٩ . أبْن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٥ ص ٤٧ . طرخان ، ابراهيم علي : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠ م ، ص ١٢١-١٢٣ .

(٩) المقرئزي : السلوك ، ج ٤ ق ٢ ص ٩١٧ . أبْن حجر : أنباء للغمر ، ج ٣ ص ٥١٩ .

(١٠) المقرئزي : السلوك ، ج ٤ ق ٢ ص ٩٥٦ ، ٩٦٣ . أبْن حجر : أنباء الغمر ، ج ٣ ص ٥٤٢-٥٤٤ .

(١١) أبْن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٥ ص ٦٣-٦٤ . مجهول : حوليات دمشقية ، ص ١٤٥ .

(١٢) عاشق باشازاراده : تواريخ آل عثمان ، استنبول ، ١٣٣٢ هـ ، ص ٢٤٧ .

(١٣) أبْن تغرى بردى : حوادث الدهور في معرفة الأيام والشهور ، تحقيق : وليم بوبر ، جامعة كاليفورنيا ، ١٩٣٠ م ، ج ١ ص ١٠٣ . السخاري ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن : التبر المسبوك في ذيل السلوك ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ص ٣٤٥ .

- (١٤) أبين تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ص ٧٠ .
- (١٥) أبين تغري بردى : حوادث الدهور ، ج ٣ ص ٤٨٦-٤٨٧ .
- (١٦) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٣٤ .
- (١٧) أبين تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١٦ ص ٢٨٨ .
- (١٨) عن معركة موش ومقتل جهانشماه وانبيار دولة القره قوينلو على يد حسن الطويل . أنظر : ابو بكر الطهراني : ديار بكريه ، تصحيح : نجاه لوغال وفاروق سومر ، انقرة ١٩٦٢ م ، ج ٢ ص ٢٣٨ ، ٣٣٨ ، ٤٥٧-٤٥٨ . قداوي ، علاء محمود : العراق في القرن التاسع الهجري / التاسع عشر الميلادي ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، مقدمة الى عمادة كلية الآداب ، جامعة الموصل ١٩٩٣ ، ص ١٩٢-٢٠٤ .
- (١٩) لمزيد من التفاصيل عن توسع اماره الاق قوينلة وانبيار الدولة التيمورية ، أنظر : قداوي : العراق في القرن التاسع الهجري ، ص ١٩٨-٢٠٤ .
- (٢٠) عن محاولة حسن الطويل ايجاد منفذ له على البحر المتوسط وفشله في ذلك ، أنظر التفاصيل : أبين تغري بردى : حوادث الدهور ، ج ٣ ، ص ٤٠٨ ، ٤٨٨ . دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أوزون حسن ، م ٦ ص ١٤١ .
- (٢١) أبين تغري بردى : حوادث الدهور ، ج ٣ ص ٥٠٨ .
- (٢٢) أبين أياس ، محمد بن احمد الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، مطبعة بولاق بمصر ، ج ٢ ص ١٠٣ .
- (٢٣) المصدر نفسه ، ج ٢ ص ١٠٦ .
- (٢٤) المصدر نفسه ، ج ٢ ص ١٢٣ .

- (٢٥) اماره ذي الغادر من الامارات التي عاصرت دولة المماليك ، تقع شرق
اى ناضول وعاصمتها ابلاستين واشهر حكامها شاه سوار ، للتفاصيل
أنظر : طرخان ، ابراهيم علي : مصر في عصر دولة المماليك
الجراسية ، القاهرة ١٩٦٠م ، ص ١١٧ .
- (٢٦) الصيرفي ، علي بن داود الجوهري : أنباء الهصر بأنباء العصر ، تحقيق
: حسن الحبشي ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٠م ، ص ٢١٩ ، ٢٤٨ .
- (٢٧) أبين أياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ١٤٠ .
- (٢٨) المصدر نفسه ، ج ٢ ص ١٤٠-١٤١ .
- (٢٩) المصدر نفسه ، ج ٢ ص ١٤٥-١٤٦ .
- (٣٠) المصدر نفسه والصفحة . السخاوي : الذيل التام على دول الاسلام ،
تحقيق : احمد عبد الله الحسو ، رسالة ماجستير مقدمة الى جامعة
عين شمس ١٩٦٨م ، ص ٢١٤ .
- (٣١) أبين أياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ١٤١ .
- (٣٣) الجواهري ، عماد : صراع القوى السياسية في انمشرق العربي ،
منشورات جامعة القادسية ، ١٩٩٠م ص ٤٣ .
- (٣٤) عن هذا التقارب ، أنظر : أبين أياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ١٤٤ .
- (٣٥) عن هذا التمرد ، أنظر : مرتضى افندي ، نظمي زاده : كلشن خلفا ، نقله
الى العربية : موسى كاظم نورس ، منشورات المجمع العلمي
العراقي ، ٢٤٩٩ .
- (٣٦) أبين أياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ١٥٩ .
- (٣٧) غفاري ، القاضي احمد بن محمد بن عبد الغفور : تاريخ جهان أرا
كتابفروشي ، حافظ ، طهران ، ص ٢٥٣ . البديليسي ، شرف خان :
شرفنامه ، ترجمة : محمد علي عون ، دار احياء الكتب العربية ،

ص ١٠٧ . العزاوي ، عباس : تاريخ العراق بين احتلالين ، مطبعة
بغداد ، ص ٢٤١ .

(٣٨) الغياثي : التاريخ الغياثي ، ص ٣٩١ .

(٣٩) الغفاري : تاريخ جهان أرا ، ص ٢٥٣ . مرتضى افندي : كلش خلفا ،

ص ٢٤٩ . الجواهري : صراع القوى ، ص ٣٢ .

Kafes Olgiu : Kara Koyunlu , P , 884 .

(٤٠) الجواهري : صراع القوى ، ص ٣٣ .

(٤١) أنظر : الغياثي : التاريخ الغياثي ، ص ٣٩٠ . قداوي : العراق في القرن

التاسع الهجري ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

(٤٢) الغياثي : التاريخ الغياثي ، ص ٣٩٤ . أشتور . أ : التاريخ الاقتصادي

والاجتماعي للشرق الاوسط في العصور الوسطى ، ترجمة : عبد

الهادي عيلة ، دار قتيبة ، دمشق ١٩٨٥م ، ص ٣٥٠-٣٥١ .

(٤٣) ابن أياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ١٩٥-١٩٨ . السخاوي : الذيل النام ،

ص ٢٦٦ .

(٤٤) ابن أياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ١٩٥-١٩٨ .

(٤٥) للاطلاع بشكل مفصل على هذه المعركة ، انظر : ابن أياس : بدائع

الزهور ، ج ٢ ص ١٩٨-١٩٩ . البديسي : شرفنامه ، ج ٢ ص ١٠٩

الصيرفي : انباء الهمر ، ص ٥٠٧-٥٠٨ . الجواهري : صراع

القوى ، ص ٣٩-٤٢ .

(٤٦) ابن أياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ١٩٨-١٩٩ . الجواهري : صراع

القوى ، ص ٤٢ .

(٤٧) ابن أياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ص ١٩٩ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٢٠١ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٢١٠ . السخاوي : الذيل التام ، ص ٣٨١ .

(٥٠) أبين طولون ، شمس الدين محمد : مفاكية الخلان في حوادث الزمان ،

تحقيق : محمد مصطفى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ،

القاهرة ١٩٦٤ ق ١ ص ٨٠ ، ١٣٥ . السخاوي : الذيل التام ص ٣٦١ .

(٥١) عن الصراع بين السلطان يعقوب ، أنظر : أبين طولون : مفاكية الخلان ،

ق ١ ص ١٣٧ . مرتضى أفندي : كلشن خلفا ، ص ١٧٨-١٧٩ .

(٥٢) الحمداني ، طارق نافع : علاقة المماليك المصريين بالدولتين الصفوية

والعثمانية في مطلع القرن السادس عشر ، المجلة العربية للعلوم

الانسانية ، جامعة الكويت ، العدد السابع عشر ، المجلد الخامس ،

١٩٨٥ م ، ص ١٥٦ . دارج ، احمد السيد : المماليك والفرنجية في

القرن ٩هـ / ١٥ م ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦١ م ،

ص ١٢٧ .

(٥٣) لونكر ك ، ستيفن هيمسلي : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ،

ترجمة : جعفر الخياط ، ط ٦ ، منشورات مكتبة اليقظة العربية ،

بغداد ، ١٩٨٥ م ، ص ٣١ .

Romer , H , R : The Turkmen Dynasties , in The eambridge
History of Iran , 1986 , VOI , 6 , P , 183 .

(٥٤) أبين أياس : المختار من بدائه الزهور ، ج ٧ ص ٧٧٤ . البديليسي :

الشرفنامه ، ج ٢ ص ١٢٨ . القهواتي ، حسين محمد : العراق بين

الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ، رسالة ماجستير غير منشورة ،

مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ١٩٧٥ م ، ص ٤٣-٤٧ .

لونكر ك : اربعة قرون ، ص ٣١ .

(٥٥) عن نشأة الدولة الصفوية ومؤسسها اسماعيل الاول الصفوي ، انظر :

جمعة ، بديع واحمد الخولي : تاريخ الصفويين وحضارتهم ، دار

الرائد العربي ، ج ١ ص ٢٨-٣١ . دائرة المعارف الاسلامية ، مادة
اسماعيل الاول ، م ٢ ص ١٧٥ .

(٥٦) الحمداني : علاقات المماليك ، ص ١٥٦ .

(٥٧) أبْن أياس : المختار من بدائع الزهور ، ج ٧ ص ٨٠٣ ، ٨٠٤ . نوار ،
عبد العزيز سليمان : الشعوب الاسلامية ، دار النهضة العربية ،
بيروت ١٩٧٣ م ، ص ٧١ . دارج : المماليك والفرنجية ، ١٤٤ ،
١٤٥ .

(٥٨) أبْن أياس : المختار من بدائع الزهور ، ج ٧ ص ٧٩٩ .

(٥٩) الحمداني : علاقات المماليك ، ص ١٥٧ .

(٦٠) الجميل ، سيار كوكب علي : تكوين العرب الحديث ، منشورات جامعة
الموصل ، ١٩٩١ م ، ص ٦٤-٦٥ .

(٦١) النهر والي ، قطب الدين محمد بن احمد : كتاب الاعلام بأعلام بيت الله
الحرام ، تحقيق : فيردناند ويستفلد ، بيروت ١٩٦٤ م ، ص ٢٧٧ .

(٦٢) الحمداني : علاقات المماليك ، ص ١٥٩ . نوار : الشعوب الاسلامية ،
ص ٨٦ .

(٦٣) علي ، علي شاكِر : ولاية الموصل في القرن السادس عشر ، رسالة
دكتوراه غير منشورة مقدمة الى عمادة كلية الاداب ، جامعة
الموصل ، ١٩٩٢ ، ص ٤٨-٥٢ . الجميل : تكوين العرب ،
ص ٦٧-٦٩ .

(٦٤) أبْن أياس : المختار من بدائع الزهور ، ج ٧ ص ٧٩٩ .

(٦٥) المصدر نفسه ، ج ٩ ص ١٠٢٨-١٠٢٩ .

(٦٦) المصدر نفسه ، ج ٩ ص ١٠٣١ ، ج ١٠ ص ١٠٤٩ .

(٦٧) المصدر نفسه ، ج ٩ ص ١٠٣٨ ، ج ١٠ ص ١٠٤٩-١٠٥١ .

- (٦٨) المصدر نفسه ، ج ١٠ ص ١٠٥٣ ، ١٠٥٩-١٠٦١ ، ١٠٦٧-١٠٦٨ .
- (٦٩) المصدر نفسه ، ج ١٠ ص ١٠٧١-١٠٧٣ .
- (٧٠) المصدر نفسه ، ج ١٠ ص ١٠٧٦-١٠٧٧ .
- (٧١) المصدر نفسه ، ج ١٠ ص ١٠٨١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ .